الفلسطينيون تحت الاحتلال

كميل منصور (مشرف)، **الشعب الفلسطيني في الداخل: خلفيات الانتفاضة السياسية والاقتصادية والاجتماعية**، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٠، ٤١٧ صفحة.

أراد مؤلفو هذا الكتاب الاضطلاع بمهمة وصف الوجوه الاساسية لوضع الفلسطينيين في الاراضي المحتلة، وفي اسرائيل. والمقصود بـ «الفلسطينيين»، وهم موضوع هذا الكتاب، اولئك الذين يعيشون، اليوم، داخل حدود فلسطين الانتداب، أي اولئك الذين يطلق عليهم تسمية «فلسطينيو الداخل»، تمييزاً لهم عن «فلسطينيي الخارج»، أو «فلسطينيي المنفى».

ويلاحظ قارىء الدراسات، التي احتواها الكتاب، ان اشكالية مشتركة تنبثق من هذه الاعمال، أيّاً كان الفصل المعالج، أو المستوى المتناول. والواقع ان مؤلفي الكتاب وجدوا أنفسهم محمولين على اظهار كيف ان ديمغرافية فلسطينيي الداخل، وبنيتهم الاجتماعية، واقتصادهم، ووضع ابنائهم التربوي، وشغلهم للحيّز والمكان (وليس فقط وضعهم القانوني، أو نشاطاتهم السياسية، بالمعنى الحصري للكلمة) تخضع كلها للسيطرة الاسرائيلية، وتشكّل، بالتالي، مجالات كان لا بدّ من ان تنتظم مقاومتهم فيها. وعلى هذا، فان تركيز مؤلفي الكتاب لم ينصبّ على الاوضاع والشروط الحياتية للفلسطينيين فحسب، وانما على مختلف الرهانات التي يمثّلها بقاؤهم كجماعات قومية، واشكال النضال التي اعتمدها المجتمع الاهلي من أجل هذا البقاء.

وسعى الكتاب، بشكل أساس، الى التركيز على فلسطين وجعلها «مرئية» أكثر وظاهرة أكثر، أي معرفة الاهلين الفلسطينيين في واقعهم الحقيقي الصحيح، وفي نضالهم ضد الاحتلال، من اجل بناء الحدّ الادنى من الوضع الطبيعي. وتبعاً لذلك، فان الكتاب لا يتناول الاوضاع الاجتماعية، والسياسية، لجماعات المنفى الفلسطينية، بل يكتفي بدراسة العلاقة بين «الداخل» و«الخارج» ضمن اطار مسألة أعمّ تتعلّق بالمستقبل العربي الفلسطيني.

والفكرة المطروحة بشكل واضح في الكتاب هي اعادة «الوضع الطبيعي» في فلسطين. والمقصود به الحدّ الادنى من الشروط المقبولة التي تتيح للفلسطينيين ممارسة حقهم في العودة، وتضمن لمن يعيشون، اليوم، أو قد يجدون أنفسهم غداً في الضفة الفلسطينية وقطاع غزة، الاستقلال السياسي والسلام على جزء من أرض وطنهم، وتؤمّن لمن يرزح تحت السيطرة الاسرائيلية (كما في الجليل) حياة كريمة متساوية، كأقلية قومية. وهذا الحدّ الادنى من الوضع الطبيعي هو ما يشكّل الاطار المرجعي بالنسبة الى هذا الكتاب.

يتوزّع الكتاب على اثني عشر فصلاً وخاتمة، بعالجها ثلاثة عشر كاتباً، على مدى اربعمئة صفحة.

تناول الفصل الاول، ومؤلفه جورج قصيفي، موضوع «الرهان الديمغرافي في فلسطين»، فأكد فيه ان العامل الديمغرافي يشكّل عنصراً أساسياً في النزاع العربي ـ الاسرائيلي. «فهناك، من جهة، الحركة الصهيونية التي لا تزال، منذ ما قبل انشاء دولة اسرائيل، تجهد في تنظيم هجرة كثيفة ليهود من كل انحاء العالم نحو فلسطين، مهجّرة في الحين نفسه سكان البلد الاصليين؛ وهناك، من جهة أخرى، السكان الفلسطينيون الذين يجهدون، وبقليل من النجاح حتى الآن، في البقاء على أرضهم الوطنية، معارضين هذا الاستعمار السكاني» (ص ٩).